المحاضرة (٢)

الشعر العراقي في القرن التاسع عشر

كانت حالة العراق في القرن التاسع عشر امتداداً للقرون المختلفة منذ احتلال بغداد (٦٥٦هـ). وذلك لأسباب يتصل بعضها بوقوعه تحت الصراع التركي الفارسي، وللوهن الذي أصيب به خلال تلك القرون التي تختلف فيها سياسياً واجتماعياً وفكرياً، وربما كان للروح القبلية، وتحكم العادات والقيم العشائرية اثره في هذا التخلف. كما ان سوء الادارة التي تحكمت في ولاياته المختلفة على عهد الاتراك، كان اشد الاسباب التي انعكست اثارها في تأخره، وهذا التأخر قد عطل حياة العراق عن حركة التطور، وضعف نبض قلبه كان يخفق بالحيوية من قبل تلك القرون وإذا كانت ثمة ظروف قد ساعدت على يقظة بعض الاقطار العربية، كمصر ولبنان وسوريا، قبل العراق، فإن هذا الأخير ظل يعاني من التخلف الذي ألمحنا إليه، بسبب احتفاظ الاتراك بالسيطرة عليه أولاً، ثم وقوعه في براثن الاحتلال البريطاني بعد ذلك. فظل العراق يعاني من سيطرة الحكم الاجنبي، وحرم من التمتع بحريته وخيرات أرضه ، حتى بعد إعلان الحكم الملكي، إذ ارتبط بالعديد من المعاهدات مع الانكليز، والتي قيدت حريته وجعلته يسير في ركاب غيره.

وإذا جاز لنا أن نوضح أبعاد هذه الصورة المختلفة. فإن صورة المجتمع العراقي تمثل أول هذه الأبعاد.

فقد كان العراق مقسماً إلى ثلاث ولايات هي ولاية بغداد وولاية الموصل، وولاية البصرة، وكان حكام هذه الولايات أتراكاً، عدا فترة المماليك القصيرة. وكانت الولاية تتركز بيد الوالي ومجموعة من الموظفين رداهم من الاتراك أو من الاسرة الموسرة التي كانت تربطها بالوالي علاقة طيبة. ولم تكن علاقة الناس به كذلكِ، ولا كانت كذلك مع معظم الموظفين في الولاية.

وأشد مظاهر التفسخ في الولايات العراقية، شيوع الرشوة، إذ كانت أعلى المناصب والوظائف عرضة للثراء، ومن ضمنها الولاية نفسها، وكان هذا يستدعي صراعاً على السلطة، فتشتري ذمم الناس وضمائرهم بالاموال، التي تجبى باسم الضرائب والهدايا التي تجمع، وتساعد الوالي على الاحتفاظ بمنصبه.

وقد أدى هذا إلى شكوى الناس وتذمرهم وكان الصراع على السلطة يؤدي إلى الفوضى والسلب والنهب والقتل.

وكان للوالي مساعدون إداريون، أمثال الكتخدا والدفتر دار والقاضي والخازندار، وينضم إليهم موظفون أقل شأناً يساعدونهم في أمور إدارتهم ولم تكن هذه الوظائف حتى الصغيرة منها– لتتم لأصحابها إلا بالتزلف والمحسوبية ودفع الرشوة مما ينتهي إلى صراع ينسحب أثره على

الناس. ولعل من مظاهره شيوع حالة البؤس والشكوى والأنين التي كانت تبدو في قصائد الشعراء.

وعلى الرغم من تحقق هذه الصورة السيئة، فقد ظهر بعض الولاة في العراق من الذين تركوا آثاراً طيبة خلال فترة ولايتهم، من أمثال سليمان باشا الذي تولى الحكم ما بين (١٨٠٨-١٨١٦) فقد امتاز حكمه (ببعض الاصلاحات) إذ منع عماله من قبول الهدايا والرشوة... ومنع التعذيب ومصادرة الاموال وألغى بعض الضرائب... كما قرب العلماء وأكرمهم وانشأ بعض المدارس وشيد المساجد) .

وربما كانت هذه الاصلاحات سبباً في عزله وقتله.

ومن الولاة الذين يذكرهم العراق بالاصلاح، داود باشا، الذي شيد الاسواق والخانات وحفر الانهار وبنى المدارس والمساجد ، وعني بالعلماء والأدباء والشعراء وقد كان هو نفسه عالماً فيما يقال. ولم يكن مصيره أفضل من مصير سلفه للأسباب نفسها.

أما مدحت باشا الذي تسلم ولاية بغداد عام (١٨٦٩) فقد امتاز عصره بحركة عمرانية وتجارية وصناعية، وشجع الحركة الفكرية بانشائه جريدة الزوراء التي اخذت تنشر الاخبار المحلية والعالمية، وتطلع الناس على ما يجري في العالم المتمدين. كما امتاز عهده بإنشاء مجلس الشورى الذي أخذ ينقد الموظفين، وكذلك قضى على قطاع الطرق واللصوص. فشاع الهدوء في الولاية وتقدمت الزراعة، وتطور الاقتصاد، فازدادت بذلك واردات الولاية ومن أهم إصلاحاته، توطين العشائر وتمليكها الأراضي مما اشاع الهدوء والاستقرار.

يضاف إلى هذا تأسيسه معملاً للنسيج، ومده لخط الترام بين بغداد والكاظمية، وبناؤه للمدارس الثانوية، وتاسيسه لمعمل النفط في بعقوبة، كما سير البواخر في خليج البصرة والبحر العربي لتصل إلى الأستانة، وبالإضافة إلى إصلاحاته العسكرية والعمرانية الأخرى .

ولم يكن مصير هذا الوالي المصلح أحسن من مصير سلفيه سليمان وداود فقد عزلته الدولة ، وقامت بطمس معالم اصلاحاته خوفاً من تنبه الناس فيما يقال.

وهكذا لم تكن الاصلاحات تظهر في الولايات العراقية حتى تبادر ادلولة إلى إيقافها، وطمس معالمها لذلك فإن الكثير من مظاهرها التي تحققت على أيدي المصلحين، كانت تؤول الى الخراب.

ولم تكن الحياة الثقافية احسن حالاً من الصورة الاجتماعية، فقد انحصر العلم في المساجد وفي المدن ذات الطابع الديني كبغداد والحلة والموصل والنجف والبصرة.

وكانت أساليب الدراسة عميقة ومناهجها مختلفة وموضوعاتها محصورة بالعلوم الدينية واللغوية والنحوية وحسب. ولذلك خلت من عنصر الابتكار، ولم يتحقق بما تم لها، عنصر

الاصالة والابداع والتجديد، إذ كان الطالب يدرس النحو والصرف والمعاني والبديع والبيان والفقه، فيحفظ متن الاجرومية وألفية ابن مالك ومغني اللبيب ويدرس التفتازاني.

وكان الطلاب يلتقون علومهم على من يتخصص بهذه العلوم أو ببعضها، ولم تكن الدراسة لتخلو من المناقشة والمحاورة، ولكنها كانت تعتمد التحفيظ والتلقين في الأغلب الاعم. ولعل من أسباب التخلف، أن ولاية العراق كانت في نهاية القرن التاسع عشر، كانت علاقتها بالاقطار الاوربية التي قطعت أشواطاً بعيدة في العلم والمعرفة والأدب، معدومة أيضاً، مما حرم أهلها من كل جديد ونافع. كما أن وسائل نشر العلم وذيوعه كالطباعة والصحافة، كانت شبه معدومة، فلم يكن العراقيون يقفون على اسباب النهضة العلمية والفكرية والادبية التي كانت تجري في العالم الأوربي، بل حتى ما كان يتحقق منه في الأقطار العربية الأخرى كمصر ولبنان وسوريا إلا القليل النادر.

وما يهمنا من هذا هو الشاعر وموقفه في هذه الصورة، وعطاؤه من خلالها، لقد كانت شخصية الشاعر موزعة ما بين الوالي والأسر الموسرة التي كانت ترعاه وتقدم له ما يعينه على تجاوز محنة البؤس والشقاء والحرمان. لكن هذه الصلة قد أساءت إليه إساءة كبيرة، وقتلت عطاءه حين وقف يتزلف إلى الوالي ويتقرب من الاغنياء طلباً للعطاء. ولذلك وجدنا معظم الشعراء يلجأون إلى الولاة، ومن يدور في فلكهم من العوائل الموسرة، التي كانت تعنى بهم، وتغدق على البارزين منهم العطاء. فالشاعر عبد الغفار الأخرس كان على صلة وطيدة بآل النقيب في بغداد، والشاعر حيدر الحلي يرتبط بآل قزوين في الحلة وآل كبة في بغداد، ويتجه الشاعر جعفر الحلي بمدحه إلى آل كاشف الغطاء في النجف وآل قزوين في الحلة، وإلى آل الرشيد في حائل وامراء المحمرة في كثير من قصائده.

بينما يتجه الشاعر صالح الكواز إلى آل قزوين وآل كبة في مدائحه .

ولقد سبقت الإشارة إلى أن بعض الولاة، أمثال داود باشا في بغداد ويحيى باشا الجليلي في الموصل، قد قربوا إليهم الشعراء، وأجروا لهم العطاء، حتى وجدنا شاعر الموصل عبد الباقي العمري ينظم ديواناً كاملاً هو (نزهة الدنيا) بحق الوالي يحيى باشا الجليلي، كما مدح داود باشا والي بغداد أيضاً، وحين قرب هذا الوالي الشاعر عثمان بن الجليلي، كما مدح داود باشا والي بغداد أيضاً، وحين قرب هذا الوالي الشاعر عثمان بن سند، مدحه الشاعر وألف بحقه كتاباً أسماه (مطالع السعود في طيب أخبار الوالي داود) كما قرب هذا الوالي الشاعر صالح التميمي.

وكان حصيلة هذه الصلة في معظم الاحيان، تسجيل مآثر الولاة بالمدائح التي لا تطابق الحقائق. ولقد كانت صلة الشاعر بالوالي تمثل صلة (الأدنى بالأعلى) إذ كان الشاعر يستغل لمفاكهة الوالي وصحبه ومنادمته وادخال السرور إلى نفسه .

وكان هذا يسيء إلى موقفه ويقدح في كرامته ويغض من شأنه ويكشف عن زيف فنه وضعف موقعه في مجتمعه، إذ كان يجب أن ينأى عن كل ما يحط من وظيفته الادبية والفنية.

ومن هنا فقد شاعر القرن التاسع عشر، الصلة بينه وبين جمهور يتذوق شعره إذ صار شعره يدور في فلك السلطان والوالي، كما يجوب أحياناً قصور الأغنياء أو بيوت السراة، مع أن معظم هؤلاء وفي مقدمتهم السلاطين والولاة لم يفهموا الشعر ولم يتذوقوه. وهذه الصورة تبيح لنا القول، بأن الشعر كان وسيلة للاستجداء والتزلف والنفاق.

وقد أدى هذا إلى أن يفقد الشعر العربي في القرن التاسع عشر هويته العربية ويستدل على هذا، بالموقف المزري للشاعر عبد الباقي العمري حين مدح الوالي علي رضا باشا لفتكه بقبائل كعب العربية بما يجعل هذا الانتصار اعظم من يوم ذي قار، ولا يكتفي هذا الشاعر العربي بهذا الغض من قيمة قومه العرب، فيعمد إلى إهدار كرامته حين يتمنى أن يقبل يد هذا الوالي الظالم فيقول:

من لي بتقبيل كف صوب عارضها يزري بواكف صوب العارض الهطل ويمعن الشاعر عبد الغفار الاخرس باذلال نفسه حين يتمنى عودة الوالي داود باشا ليقبل قدميه فيقول:

فالشـــم اقـــدام الـــوزير التـــي لهـــا إلـــى غايـــة الغايـــات ممشـــى ومهيـــع

وهذا قدح بمصداقية تجربته أيضاً. ودليل انحطاط صورة الشاعر وفنه. كما إنها دليل على حالة الانفصام التي كانت تسود علاقة الشاعر بمجتمعه وحكامه .